ذلك كانت هذه المكتبة قد زوِّدت وزارة الثقافة المصرية ، بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، على نسخ نادرة ، لأغراض إعادة الطبع ، من (أصل الأنواع) لشبلى شميل ، و(حرب النهر) لونستون تشيرشل ، و(عشر سنوات فى أسر المهدية) للأب جوزيف أوهلدر ، بعد نفاد الطبعات الأولى من هذه المؤلفات التى كانت قد صدرت من مطبعة بولاق بالقاهرة فى أوائل القرن الماضى.

الملحظ الثانى: أن أروقة الأحزاب السياسية ، كجزء من مؤسسات المجتمع المدنى ، ظلت تضم دائماً ، وعبر مختلف الفترات ، عناصر مسيحية ناشطة بين قياداتها وقواعدها ، كتادرس عبد المسيح (عضو مجلس الشيوخ سابقاً) وجوزيف صباغ وإبنه لطيف فى حزب الأمة ، ووديع جيد وعبد الله النجيب وحنا يسا البياض فى الاتحادى الديموقراطى ، وموريس سدرة وسمير جرجس وميشيل اسطفانوس وجوزيف قرنق وجوزيف موديستو وجرجس نصيف فى الحزب الشيوعى.

IV

(١) فى خلفية هذه الحقائق وغيرها تتجلى المفارقة المأساوية بوضوح حين ننظر الآن فى ما انتهى إليه هذا الحضور الريادى ، فلا نجد ، إلا فى ما ندر ، غير ضعف مشاركة المجموعات المسيحية فى الحياة العامة ، بل غيابها شبه التام عن أنشطة المجتمع المدنى ، وانزوائها الكامل كما الجاليات المعزولة! وقد لا يحتاج الباحث إلى كبير عناء ليعود بتاريخ هذه الظاهرة إلى أواخر سبعينات وأوائل ثمانينات القرن الماضى. وهى الفترة التى شهدت بداية الارهاص الجدى بتدشين مشروع الدولة الدينية الذى أنجز أولى حلقات تمظهره الكيفى بإصدار وتطبيق قوانين سبتمبر ١٩٨٣م باسم الشريعة الاسلامية ، ثم عاد لاحقاً إلى مراكمة عناصر حركته بذات الاتجاه فى ظل الظروف التى تمخضت عنها الانتفاضة الشعبية بين أبريل ١٩٨٥م ويونيو ١٩٨٩م ، حيث استكمل خطوته التحويلية نحو حل قضية السلطة عن طريق الانقضاض المسلح على الديموقراطية الثالثة.

(٢) صحيح أن المسيحيين شهدوا ، خلال هذه الفترة ، من عنت المعاش والثقافة والاجتماع ، ما لم يشهدوا طوال قرن بأكمله ، بما فى ذلك التشريد الذى طال أندر كفاءاتهم فى سلك الادارة والمصارف وخلافه. ولكن الصحيح أيضاً أن المسلمين أنفسهم أضيروا ، ربما بأكثر من المسيحيين ، من مشروع التيار (السلطوى الاستعلائى). وليس سوى مكابر من ينكر أن هذا المشروع لم يعدم مساندة مسيحيين بين الجنوبيين

الكاثوليك والأقباط الأرثوذكس. كما وليس سوى مكابر من لم يلمح ، فى ملابسات الحرب التى جرى تصويرها على أساس دينى ، كيف أن المسلم قد قتل بيد المسلم ، والمسيحى بيد المسيحى. لذلك ينبغى الكف عن الترويج للمشكلة كما لو كانت قائمة بين المسيحيين ككتلة متجانسة وبين المسلمين ككتلة متجانسة مضادة.

(٣) لقد بدت هذه الحرب اللعينة ، فى أوَّلها ، انعكاساً ، بالفعل ، لمشكلة وطنية فى ظروف التخلف ".. national question under backward conditions" ، كما ذهب إلى ذلك جوزيف قرنق ، مثلاً ، فى كتابه "The Dilemma of the Southern Intelligentsia" الصادر عن وزارة شئون الجنوب عام ١٩٧٠م. وقد كان من الميسور ، أوان ذاك ، حساب التخلف الاقتصادى كأهم أساس لها. ولكننا الآن ، وفق ملاحظة د. محمد سليمان السديدة فى كتابه (حروب الموارد والهويَّة ، دار نشر كيمبردج ، لندن ٢٠٠٠م) ، نكاد نكون قد نسينا الأسباب المباشرة والهيكلية للحرب ، على حين تضخمت لدينا ، مع مرور الزمن ، إحدى أخطر (النتائج) المترتبة عليها لتشكل بنفسها (مورداً) مستقلاً لتفاقمها ، وهى منظومة المُدركات والفهوم السالبة perceptions ، التى تتخفى خلف التعبيرات الدينية ، فى الغالب ، كصورة للوعى الاجتماعى المقلوب الذى لطالما غذته أيديولوجية التسلط والاستعلاء ، وعززته الحرب فى الذهنيَّة العامة. لذلك ، وبالمقارنة مع السلاسة النسبيَّة للحلول التنمويَّة التى كان من الممكن اجتراحها على كلا البنيتين التحتيَّة والفوقيَّة منذ مطالع الاستقلال ، فإن هذه الحلول قد تستنفد منا اليوم أعماراً بأكملها. ومع ذلك لا يبدو ثمة مخرج أمامنا سواها إذا كنا نروم ، حقاً وفعلاً، سلاماً مستداماً فى إطار وحدة راسخة.

(٤) إن فضل (الايقاد) لن يعدو إسكات البنادق ، أما كل ما عدا ذلك ، كتعميق الديموقراطية ، وعدالة التنمية ، ونبذ الاستعلاء بالدين أو الثقافة أو اللغة أو العرق أو خلافه ، فهو من مهام المجتمع المدنى ، بما فى ذلك الضغط على الدولة لتنفيذ ما يليها من واجبات. وغافل من يكِل عمل المجتمع المدنى إلى الدولة ، حتى بمشاركة الحركة الشعبيَّة فى إدارتها! ومن نافلة القول أن أهم مهام المجتمع المدنى فى هذا الاتجاه هو ترميم اطمئنان المجموعات المسيحية بالوطن، واستعادة دورها فى ساحات النشاط السياسى والاجتماعى العام.

الهوامش:

[كانت هذه الورقة ، فى أصلها ، ملاحظات نقدية قدِّمت أمام ورشة عمل

(المنتدى المدنى القومى) التى انعقدت بالنادى العائلى بالخرطوم (٢٢ - ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٣م) حول (تحديات السلام فى السودان) كمناقشة أولية للورقة التى قدمها الأب فليوس ساوث فرج ، كاهن كنيسة الشهيدين بالخرطوم ، بنفس العنوان ، ثم جرى تطويرها لاحقاً كورقة مستقلة.

١تحسن جامعة الخرطوم صنعاً إذا كرَّمَت الأب فانتينى ، أسوة بالمرحوم البروفيسير نجم الدين محمد شريف الذى يستحق بالفعل كل التكريم ، فللأب فانتينى أيضاً جهوده غير المنكورة مع الراحل نجم الدين فى إنقاذ آثار النوبة ، وبخاصة معبد بوهين وكنيسة فرس ، وفى تاسيس المتحف القومى.

٢جريدة (حضارة السودان) التى اشترك فى تاسيسها عام ١٩١٩م السيد عبد الرحمن المهدى والسيد على الميرغنى والشريف يوسف الهندى ، وكان أول من تولى رئاسة تحريرها هو المرحوم حسين شريف.

٣النص الكامل للقصيدة منشور ضمن كتاب سعد ميخائيل ، المسيحى أيضاً ، والذى أصدره عام ١٩٢٥م: (شعراء السودان ، مطبعة رعمسيس بالفجالة بمصر ، ص ١٤٠).

٤ صحفى مخضرم من أكثر الأقباط السودانيين انشغالاً بهموم السلام والوحدة الوطنية والديموقراطية والتقدم ، وأبرزهم فى حقل النشاط السياسى والاجتماعى العام (من مقابلة شخصية معه فى منزله بالخرطوم نهار الأحد ٠٣/١٢/٢١).

٥ رجل أعمال من خريجى كمبونى عطبرة أواسط الستينات ، وكان عضواً فى لجنة الاتحاد.

٦ مسيحى من أبكار رجال التربية والتعليم ، والد الضابط الشهيد ميلاد سعد سليمان الذى التحق بقوات المعارضة خلال تسعينات القرن الماضى ، واستشهد فى بعض ملابسات العمل العسكرى بشرق البلاد.

٧ وفى سلالتها نفر من مشاهير الشخصيات السودانية التى لعبت أدواراً مهمة فى شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ، كالدكتور وديع حبشى ، الخبير الزراعى العالمى والوزير السابق ومدير مشروع الجزيرة الأسبق وأول رئيس للنادى القبطى عند تاسيسه فى ١٩٧٨م ، والسيد نجيب يسا ، مدير مصنع سك العملة الأسبق وسكرتير نادى المريخ الأسبق ، وغيرهما.

٨ وقد سبق أن أوردتها ضمن (جنوبيون) تحت عنوان (الثقب فى سقف البيت).

٩ من محادثة هاتفية معه عصر السبت ٢٠٠١/٧/٢١م. وقد سبق أن أوردتها أيضاً ضمن (جنوبيون) تحت عنوان (جو: أىَ فتى أضاعوا).

▪ ▪